عجـــز

لو أنه ظهر على أى وزارة من الوزارات فى أى بلد من البلاد الحرة لما استطاعت أن تبقى ولا أن تسيطر على تصريف الأمور ، ولكنه فى مصر سبب من الأسباب التى تمد حياة الوزارة القائمة ، وتطيل بقاءها . ولعله أن يكون السبب الأول لما تستمتع به الوزارة من حياة متصلة ، وبقاء طويل . فلو قد كان لهذه الوزارة حظ من قوة أو نصيب من قدرة أو استعداد للحزم ومضاء العزم ومقاومة الأجنبى والذود الصحيح عن المنافع المصرية لضاق بها مؤيدوها من الانجليز وأصدقاؤها من الأجانب ولتألب عليها أولئك وهؤلاء ، ولخلقوا لها المصاعب وبثوا أمامها العقاب ، واضطروها إلى أن تستقيل .

ولكنهم – والحمد لله على الخير والشر – راضون عنها كل الرضا ، مغتبطون بها كل الاغتباط . فمن الطبيعى أن يحرصوا عليها كل الحرص ، وأن يحوطوها بالعناية والرعاية ويقرأوا عليها العزائم ويهيئوا لها التمائم كلما اشتد بها الضعف أو تعرضت لخطر السقوط وماذا يكرهون من وزارة نهضت فيما يقال لحماية مصر وتحقيق منافعها ، والذود عن مرافقها بإزاء الأجانب قبل كل إنسان فلم تستطع أن تحتفظ لها من دون الأجانب بشىء ، ولم تستطع أن ترد عنها عادية ولا أن تصرف عنها مطمعا . وإنما حققت للأجانب ومازالت تحقق لهم ما أرادوا وعجزت كل العجز عن أن تحقق لمصر مصلحة ما عند الأجانب هؤلاء .*

دارت وأطالت الدوران حول وزارة الخارجية البريطانية لتظفر بالمفاوضة فلم تجد إلا ردا كان رفيقا أول الأمر ، ثم أخذ يشتد شيئا فشيئا حتى انتهى إلى العنف وأصبح أشبه شىء بإغلاق الأبواب فى الوجوه . وثارت بعض المسائل بينها وبين الانجليز فلم تستطع

---

* كوكب الشرق فى ٨ – ٧ – ١٩٣٣

فيها إلا التسليم المطلق ، والإذعان الذى لا حظ فيه لمقاومة أو ثبات . وثارت بعض المسائل بينها وبين غير الانجليز من الأجانب فلم يكن موقفها منهم خيرا من موقفها من الانجليز ، وهى مع ذلك فيما تزعم وزارة العزة والكرامة ، ووزارة الإباء والاستقلال . وإن المصريين ليشهدون موقفها من مسألة الدين منذ ثارت فيستحون لها ويستحون لأنفسهم من هذا الضعف الذى لا يليق بوزارة تشعر لنفسها بشيء من الكرامة فى هذا العصر الحديث .

أعلنت منذ ثارت مسألة الدين أنها لن تؤدى إلا ورقا ، وكان من الحق عليها لنفسها ولمنفعة البلاد التى جعلت الظروف أمرها إليها أن تتبع هذا القول بالعمل ، وأن تجعل الأداء بالورق أمرا واقعا لا يحتمل جدالا ولا نزاعا ولكنها لم تصنع شيئا وما كان لها أن تصنع شيئا وليس لها حظ من قوة ولا نصيب من قدرة على المقاومة والثبات للأجنبى .

لم تصنع شيئا – نستغفر الله – بل صنعت ما يجعل إعلانها عبثا من العبث ، وكلامها لغوا ، لا يخيف ولا يفيد . قبلت الخصومة أمام المحاكم المختلطة وهى تعلم حق العلم ، وتصيح ما وسعها الصياح أن هذه المسألة لا تصلح موضوعا للخصومة أمام المحاكم ولكنها على ذلك قبلت هذه الخصومة ومضت فيها . والغريب أنها مضت فى هذه الخصومة ومضت فى الوقت نفسه فى مفاوضات سياسية فأتاحت للدول أن تقول لها : لم لا تنتظرين حكم القضاء ؟ ثم قضت عليها المحاكم فمضت فى الخصومة وأستأنفت ومضت أثناء ذلك فى المفاوضات وأتاحت للدول أن تقول لها مرة أخرى ولم لا تنتظرين حكم القضاء ؟ ولاسيما وقد ظهر الحكم الابتدائى مؤيدا لرأينا مغنيا لنا على ما نريد .

كذلك أوحت إليها الكفاية الخارقة والمهارة البالغة والبراعة الفائقة فى تصريف أمور السياسة والمال جميعا أن تقول ولا تفعل ، وأن تعد ولا تفى ، وأن تخاصم أمام القضاء وتزعم أنها لن تنفذ أحكام القضاء ، وأن تذهب إلى المحكمة وتذهب فى الوقت نفسه إلى وزارات الخارجية . مواقف أقل ما توصف به أنها متناقضة مضطربة لم تصدر عن خطة مستقيمة واضحة وإنما صدرت عن حيرة وتردد وعجز .

وهذه المفاوضات لقد طالت ويظهر أنها ستطول وستسرف فى الطول . بدئت فى مصر واستمرت فى أوروبا حين سافر رئيس الوزراء فى العام الماضى للرياضة والراحة ، ثم اتصلت فى مصر ، ثم استمرت فى أوروبا حين وفد كبير المستشارين الملكيين إلى إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، ثم اتصلت فى مصر واستمرت فى باريس حين سافر مدير البنك العقارى إليها ثم اتصلت فى باريس حين ذهب رئيس وزرائنا ليستشفى ويستريح ، ثم

استؤنفت فى لندره والله يعلم متى تنتهى وإلى أى نتيجة تنتهى ، ولكن الشيء الذى لا يقبل شكا ولا جدالا هو أنها لن تنتهى إلى ما يحقق المنفعة المصرية أو يحفظ الكرامة المصرية . فإن المفاوضة فى هذه المسألة معناها المساومة ، معناها الأخذ والعطاء ، معناها أن تنزل مصر عن بعض حقها وينزل الأجانب عن بعض ما يزعمون لأنفسهم من حق فيلتقى المختصمون فى وسط الطريق ، وقد كان يجب ألا تنزل لهم عن شيء .

كان يجب ذلك لو أن فى مصر وزارة قوية قادرة على أن تقول فتعمل وتعد فتفى ، وتريد فتنفذ ما تريد . ولكن فى مصر – والحمد لله على الخير والشر – وزارة قوية مسرفة فى القوة بالقياس إلى المصريين ، ضعيفة مسرفة فى الضعف أمام الأجانب . ولذلك لا تريد هذه الوزارة من المصريين شيئا إلا جدت في تنفيذه ، وأنفقت من الجهد ما يطاق ومالا يطاق ، وانتهت أحيانا إلى أن تثير الضحك والابتسام . فإذا أرادت من الأجانب شيئا فسل عن اللين والرفق ، وسل عن الظرف واللطف ، وسل عن الخفة والمجاملة ، ثم سل بعد ذلك عن الإذعان والتسليم .

ولو أن وزارتنا اصطنعت مع المصريين بعض ما تصطنع مع الأجانب من الظرف والمجاملة لهان احتمالها بعض الشيء ولكن أنى لها ذلك ، وهى إن فعلته عرضت نفسها للفشل وخطر الاستقالة . لو أنها صبرت وصابرت فى أمر جبل الأولياء ، لو أنها تمهلت واصطنعت الأناة فى أمر بحيرة تانا ، لو أنها فكرت وتروت فى غير هذين الأمرين من أمور الشركات ، لو أنها تريثت فى أمر التعليم لأمكن احتمالها بعض الشيء ولكنها متعجلة شديدة التعجل حين تطلب إلى المصريين شيئا وهذا معقول فليس للمصريين من القوة والبأس مثل ماللأجانب وليس المصريون قادرين قدرة الأجانب على إحراج الوزارة واضطرارها إلى ترك الحكم . فمن الحق على الوزارة أن تحاسن الأجانب وتخاشن المصريين . والإنصاف يقضى بأن نسجل لها أنها قد بلغت من ذلك أقصى ما تريد ، وظفرت للأجانب من المصريين بكل شيء ، ولم تظفر للمصريين من الأجانب بشيء . وستنتهى مسألة الدين هذه إن مدت للوزارة أسباب الحياة إلى مالا يحب المصريون . وستؤدى مصر ذهبا أو ستؤدى مصر ورقا بشرط أن ترفع الفوائد ويعوض على الأجانب بعض ما يخسرون من العدول عن الذهب فى الأداء .

وليس للمصريين أن يقولوا شيئا ولا أن ينكروا شيئا فقد أنعم الله – عز وجل – عليهم بأعظم الوزارات حظا من القوة والكفاية وأوفرها نصيبا من الرفق بهم والعطف عليهم والرعاية لمصالحهم . فمن قال غير هذا فقد ألغى عقله وتعلق بالأمانى والآمال .

وأى غرابة فى هذا ؟ أليس من الواجب على المصريين أن يؤمنوا بأن لهم وزارة تدبر أمورهم وتشرف على منافعهم وإن كان رئيسها عاجزا عن تصريف الأمور وتدبيرها منذ أشهر طوال ، وسيظل عاجزا عن تصريف الأمور أشهرا أخرى ، وهو يستشفى فى القاهرة ، ويستشفى فى فرنسا ، ويستشفى فى سويسرا دون أن يجد أحد بذلك بأسا ، لأن الأمور تجرى هادئة مطمئنة ، لا عوج فيها ولا اضطرابا . وإذا كان العجز السياسى المطلق لم يضطر رئيس وزرائنا إلى أن يستقيل ، ولم يضطره العجز المادى إلى أن يستقيل ؟ ومن يدرى ؟ لعل قوما يرون من الخير أن لا تكون لمصر إلا وزارة صورية يختلف فيها الوزراء إلى الدواوين ويجلسون إلى المكاتب ولا يعملون شيئا . من يدرى ؟ لعل قوما يرون فى هذا خيرا لأنه يقضى لهم المآرب ويحقق لهم المنافع ولا يكلفهم احتمال التبعات ولكن هذه التبعات قد تكون ثقيلة خطيرة فى يوم من الأيام حين يفسد كل شىء ولابد من أن يفسد كل شىء إذا حكمت مصر على هذا النحو الذى تحكم عليه الآن ، وأهملت مرافقها على النحو الذى تهمل عليه الآن ، وظل العجز السياسى والمادى قواما لحياة وزرائها كما هو الآن .

يومئذ يفكر الذين يرضون عن حالنا الحاضرة فلا يجدون فائدة للتفكير ويومئذ يقدرون فلا يجدون نفعا للتقدير . ويومئذ يلتمسون الإصلاح فلا يجدون إليه سبيلا . والله وحده قادر على أن يعصم مصر من أن تصل من السوء إلى هذه المنزلة فيلهم رئيس الوزراء ، أو يلهم من ينصح لرئيس الوزراء بأن يستقيل قبل أن يأتى يوم لا تنفع فيه استقالة ولا إقالة .